ظاهرة العولمة : رؤية نقدية(*)

للدكتور

بركات محمد مراد

ليس هناك من شك في أن العولمة أصبحت ظاهرة تملأ الدنيا وتشغل الناس، ورغم هذا فالاقتراب من هذه الظاهرة المهمة سادتها مختلف التميز بين الفكرية والأيديولوجية ، فضلا عن الوقوع تحت تأثير المنظور الواحد. أننا نجابه في الواقع تيارين يسيطر عليهما الانحياز المسبق:

التيار الأول: هو التيار الغربي الذي يتحيز للعولمة ويعتبرها قدرا محتوما لا مفر من قبوله بغير تحفظ بناء على أن العولمة هي تطور من أجل صالح الإنسانية جمعاء.

والثاني: هو تيار العرب والمسلمين وبقية الدول النامية برفضها بإطلاق على أساس أنها ليست في حقيقتها سوى إعادة إنتاج لنظام الهيمنة الرأسمالية القديم، أوهي في عبارة أخرى ، تحقق الأهداف الخالدة للرأسمالية ، والتي تتركز في الاستغلال وتحقيق أعلى معدلات الربح ، ولو على حساب الفقراء وشعوب العالم الثالث، وإن كان ذلك بوسائل أخرى!

إلا أننا هنا نحاول أن نتلمس طريقا ثالثا ، عن طريق النقد الموضوعي للظاهرة، وتحليل بعض تجليتها التي ظهرت في السنوات الأخيرة ، في محاولة نود أن تكون جادة لأن نكشف بأمانة علمية سلبيات وإيجابيات العولمة، علنا نتمكن من تحديد موقفنا منها ،ونتبين الخطوات الإجرائية الواجب اتباعها إزاء هذه الظاهرة، والتي بدات تتضح معالمها على المستوى العالمي ، منذ بداية التسعينيات من القرن المنصرم.

(**) هذا المقال ملخص وعرض لكتاب "ظاهرة العولمة: رؤية نقدية ، ط سلسلة كتاب الأمة – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر – العدد ٨٦ لعام ٢٠٠٢م.

Obeikandi.com

ويعتبر الاهتمام الواسع للمثقفين العرب والمسلمين بظاهرة العولمة دليل صحة وعافية، رغم اختلاط المفاهيم وغموضها من جهة ، وتعددها وتناقضها من جهة أخرى، فالمعرفة لا تأتي وتصبح جاهزة بالمصادفة ، إنما هي رؤية تتفاعل وتتناقض مع وجهات النظر الأخرى وعبر النقد والنقد الذاتي الحر المتواصل تتراكم المعرفة، ويتم انتخاب الصحيح عبر علاقته بالواقع المتغير دائما، واعتبار أن المعرفة الحقيقية أو الصحيحة هي المقدمة الضرورية التي لابد منها للتأثير في هذا الواقع، باتجاه التغيير نحو مستقبل أفضل وأكثر إنسانية للبشرية بأكملها.

وفي تقديري، يعود تعدد الآراء لهذه الظاهرة إلى أسباب مختلفة، منها: الإيديولوجية، والموقع الاجتماعي ، وزاوية الرؤية، والنقص في المعلومات ..الخ،إضافة إلى أنه من الصعب على باحث الإحاطة بظاهرة العولمة الجديدة عبر مستوياتها المختلفة الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية، خاصة وأنها ما تزال في طور التكوين والتشكيل، ولم تتضح صورتها النهائية بعد– رغم كل التحليلات– ولكننا نأمل في الكشف عن بعض جوانب هذه الظاهرة، عسى أن نزيل بعض الالتباس، ونتحصن ببعض المعرفة النقدية، ونثري الجانب الكاشف لهذه الظاهرة العالمية الجديدة.

إرهاصات العولمة: تتكاثر الخطابات العربية المعاصرة من حول العولمة، شرحا وفهما وتأويلا، وغزلا بفتوحاتها، ورجما بنتائجها، وتحذيرا منها باعتبارها حصان طروادة الأخيرة، الذي سيفتح جميع القلاع بدون استثناء، على حد تعبير "بنجامين باربر" أو سيقوم هذا الثعبان – والتشبيه لباربر– بابتلاع جميع الأرانب، فلا عجب أن تتكاثر الخطابات العربية

obeikandi.com

والإسلامية من حول العولمة، فثمة عالم جديد يتشكل بسرعة مع ظاهرة العولمة، فنحن بإزاء فتح كوني، يتغير معه سير العالم على ما كان يجري عليه حتى الآن، بحيث تغدو العولمة واقعة العصر الأولى وانقلابه الكوني الخطير. وقد شهد عقد التسعينيات من قرننا العشرين المنصرم فيضا من الدراسات التي طالت العولمة، وجدالا وسجالا تاه فيه الفكر العربي والإسلامي المعاصر، وانقسم أهله بين من هو مع العولمة وبين من هو ضدها، وبين من يجهلها، وبين من يراها فتحا كونيا وإمكانا حضاريا، وبين من يراها ثعبانا وغزوا ثقافيا ونمطا استهلاكيا يهدد الخصوصيات الثقافية في العالم العربي والإسلامي ويمهد للحرب

فقد تعامل أصحاب المشاريع الثقافية مع العولمه على أساس أنها ظاهرة سلبية تستحق المقاومة مثل الجابري وبلقيز في ندوة "العرب والعولمة " وكذلك حسن حنفي ، من دعاة التحديث والمعاصرة والساعين إلي تكوين قطب ثنائي جديد، حيث يرون أنها تدعو إلى استباحة القيم وغزو للثقافات ومحو للهويات، وتسلط على الشعوب والمجتمعات، وهذا اتجاه يراه الباحث "تركي علي الربيعو" يستعير لغة كفاحية وأيدلوجية ، تجاوزها الزمن، وهو هروب إلى الأمام يتركنا أسرى المفردات البلاغية الجميلة دون جدوي.

وهذا في رأينا يعود إلى أن الأدبيات السياسية والثقافية العربية المعاصرة لا تساهم في ضبط وتحديد مجال العولمة وأبعادها الأساسية، خاصة حين تتعامل مع المفهوم على أنه مرادف لمعنى العالمية، أو تنظر إليه من جانب وتغفل بقية الجوانب، ومن هنا سنحاول التفكير في العولمة ليس بصفتها ظاهرة منعزلة، بل كمعطي متحرك، نحاكيه ويحاكينا بصورة

يومية،من خلال شبكة معقدة من تقنيات الاتصال والتواصل الكوني المتداخل، ومنهجنا في تحقيق ذلك سيكون الرصد والوصف والتحريض العلمي، مستعينين بالمنهج النقدي، في كشف أبعاد هذا المفهوم الذي يمثل في عصرنا "ظاهرة"

لقد ارتبط مفهوم العولمة بالتحولات التى تكاد تكون خارقة للعادة التى تعيشها المجتمعات المعاصرة، بما يشبه الثورات الكبرى التى قادت العالم الحديث نحو المجتمع الصناعى ، على أنها ثورات وتحولات تحدث على مستوى العالم في لحظات متقاربة ، وتعمم من خلالها مفاهيم وتوجهات وأذواق وثقافات على ذات النطاق ، وعكس المفهوم نظاما في المجتمع شمل الاقتصاد والثقافة والسياسة مغاير للنظام القديم ، حيث التغيير هنا بات شبه يومى، بل لقد رافق نظرية العولمة طغيان المفهوم الاقتصادى ، وتحول العالم إلى سوق استهلاكية كبرى لمنتجات الشركات الصناعية الأكبر حجما .

ومع ظهور الشركات المتعددة الجنسيات ، وفرض هيمنتها المتزايدة على المقدرات والفعاليات الإنتاجية والمالية عبر العالم ، مثلت أنماط السلوك والممارسات التجارية للعاملين مصدرا هاما لثقافة تمتد عبر القوميات ، ومجمل هذه المتغيرات والتيارات الاقتصادية الكبرى ، قد رافقتها تشكيلات ثقافية على مستوى العالم ككل ، يشار إليها باسم " الثقافة العالمية " وهى لست شيئا سوى الثقافة الغربية ، أو هكذا يراد لها أن تكون ثقافة تعمم ، وذوقا واحدا يفرض على جميع البشر ، تلغى فيها الاختلافات والتمايزات الحضارية ، وباسم الثقافة الإنسانية يتم التعدى على الثقافات غير الغربية ، فهى إذن رديف البرجوازية الأوروبية .

والعولمة كمفهوم متطور ، ينظر إليها على أنها اتجاه يصبح معه العالم دائرة اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية واحدة ، تتلاشى في داخلها الحدود بين الدول ، وهي درجة من درجات تطور النظام الرأسمالي العالمي . ولذلك يرى الدكتور مصطفى محمود أنها مصطلح بدأ لينتهي بتفريغ المواطن وقوميته وانتمائه الديني والاجتماعي والسياسي بحيث لا يبقى منه إلا خادم للقوى الكبرى .

وعلى الرغم من أن بعض الباحثين يرى أن مصطلح العولمة شاع بسرعة تفوق شروط تشكل المعنى وتأسيس المرجعية التي يحيل إليها في الواقع ، وهو مشحون بعديد من المعاني ، حيث العولمة ما زالت في مراحل تشكلها الأولى ، يرى كثير من الباحثين أنها ليست مفهوما جديدا ، فهي كفكرة ، عمرها خمسة قرون مع الكشوف الجغرافية ، غير أن ثورة الاتصالات والمعلومات أشاعتها لكن ضمن النمط الغربي للحياة ، في مقابل محو الهويات الأخرى ، صاحبة الميراث والتاريخ .

وفي هذا الرأي كثير من الحقيقة ، حيث أن العولمة تهدف إلى إقامة نظام ثقافي ، اجتماعي اقتصادي وسياسي ، تتوحد فيه جميع الهويات، من أجل سياسة كونية بديلة تقوم على نظام واحد . فيه نمط سياسي اقتصادي ثقافي لنموذج غربي متطور خرج بتجربته عن حدوده لعولمة الآخر ، بهدف تحقيق أهداف وغايات فرضها التطور المعاصر ، فهي ظاهرة قادمة من الغرب ذات بعد مستقبلي ، وقضاياها تدور حول الديمقراطية والليبرالية الغربية واقتصاد السوق ...... الخ

ولذلك يرى مؤيدها بأنها إيجابية في العموم ، بيد أن آخرين يرون فيها مخاطر أساسية عديدة تثير أسئلة صعبة : هل ستؤدي العولمة إلى تحطيم الحدود ، وإذابة الهويات القومية ؟ هل سيسود الغرب المتقدم بنمطه

الاقتصادى الرأسمالى، ويعولم الاقتصاد والثقافة والوضع السياسي في العالم لحسابه ؟ وهل في إمكان العرب والمسلمين تطوير أوضاعهم في المستقبل للتعايش السلمى والإيجابى مع ظاهرة العولمة ؟ أليس هناك طريق ثالث ورابع للاستفادة من إيجابياتها وتجنب سلبياتها وإعداد النفس للتعايش معها والتأقلم مع آلياتها من خلال القيم الإسلامية ، وبما يتناسب مع الواقع العالمى المتسارع في تطوره وتغيره ؟

العولمة تفرض نفسها :

يؤكد بعض الباحثين على خطأ تصورنا أن الاتجاه نحو العولمة لم يبدأ إلا بالأمس ، حيث كان سقوط النظام في الاتحاد السوفيتى إذاناً بالتوجه نحو نظام جديد للعالم يكون بديلا منه ومتفردا على الساحة ممثلا للرأسمالية العالمية للسيطرة عليها من خلال الشركات ذات الصفة العالمية، وهى شركات ذات طابع كونى . وقد شهد الواقع العالمى الجديد تقدما هائلا في مجال تكنولوجيا المعلومات ، وما يزال بمعدلات غير مسبوقة في سرعتها مما دعا الدكتور عز الدين إسماعيل إلى التأكيد على أن العولمة قد تجلت في مجال الاتصالات والمعلومات ، وقد مكن الشركات الرأسمالية العالمية من تحقيق أهدافها التسويقية ، ورفع كفاءتها في نوعية إنتاجها ، وفتح أسواق جديدة لها .

ومن أجل هذا لم تبخل هذه الشركات على مراكز البحوث التكنولوجية بما يلزم من مال في سبيل تحقيق أهدافها العلمية ، لا من أجل تطور العلم والمعرفة الإنسانية في ذاتها ، بل من أجل الكشف عن تكنولوجيا جديدة تدعم القدرة التنافسية لدى هذه الشركات .

وليس من باب المصادفة أن يكون بروز العولمة على نحو مطرد في العقود الأخيرة ، متزامنا مع انتشار الاتجاهات بعد الحداثة في الممارسة " الإبداعية" وفى النظر " الفلسفى النقدى " فأصحاب الاتجاه الأخير بزعامة " لندوا LANDOW" في أمريكا والمهتمين بالنص الإلكترونى ، كانوا متأثرين بجملة من أفكار ما بعد الحداثة التى كان " رولان بارت " و" جاك دريدا " قد طرحوها ، خصوصا فيما يتعلق بفكرة النص المفتوح وانتشار المعنى بلا حدود ، ودور القارئ في إنتاج النص...الخ .

إن العاملين في هذا الحقل قد اتسع نطاقهم ، فصارت لهم مواقع مختلفة على خريطة العالم الجغرافية ، ومواقع نشطة من خلال شبكات الاتصال التكنولوجية المختلفة. لقد دخل النص أخيرا في معالم التكنولوجيا، وتم اعتقاله لحسابها ، ولا شك أن من يملك التكنولوجيا سيكون قادرا على الدخول إلى عالم النص والإسهام في إنتاجه المتجدد . إن ما بعد الحداثة – Post Modernesim ليس مجرد اتجاه أدبي أو ثقافي، بل هو إطار فكري عام، وأن عولمة الاقتصاد أو التجارة أو السياسة أو حتى الثقافة يتوافق مع هذا الإطار ، إن لم يتطابق معه.

الجذور التاريخية للعولمة: إن تحليل الجذور التاريخية لظاهرة العولمة، يوضح قيامها منذ نشأتها، على عالم الاقتصاد والسياسة، فقد بدأ مفهوم رأس المال فى البزوغ مع تهميش السلطة، وتزايد حركة التجارة الذي أسهم فى كسر العزلة الاقتصادية، على صعيد الكرة الأرضية. وقد شهد القرن ١٩ أوج الاقتصاد ، ولم يكن قد بلغ حد العولمة بعد، ولكن أصبحت التأثيرات الاقتصادية لهذه العولمة في الوقت الحالي ، أكثر وضوحاً منها على الثقافات القومية.

ويرى "فوكوياما" المستشار الاستراتيجي الأميركي، أن انهيار الاتحاد السوفيتي، وتفكيك المنظومة الشيوعية لم يضع حدا للصراع التقليدي فحسب، وإنما وضع نهاية للتاريخ أيضاً ، باعتباره إلى الآن تاريخ صراعات مريرة مدمرة وبتلك النهاية يميل التاريخ إلى الاستقرار عند الرأسمالية العالمية ، كنظام للديمقراطية الليبرالية الغربية، وكنظام اجتماعي سياسي أمثل.

ولقد حاول "هانتغتون" المحاضر بجامعة هارفرد، تجاوز فلسفة (النهايات) التى اكتملت عند " فوكو" بحتمية الليبرالية كمصير للشعوب، إلى حتمية (صراع الحضارات) التى هي آخر طور، فلن يختفى الصراع ولكن سيتحول من صراع دول ومجتمعات إلى صراع ثقافات وحضارات. وسيتم هذا الصراع لعدة أسباب: منها الفروق الحضارية، وتطور الإعلام والاتصال ، وحركات الصحوات الدينية ،التي خلفت حركات أصولية فى أغلب الديانات المسيحية الغربية ،واليهودية ،والهندوسية ،والإسلام ،وما كتاب "صدام الحضارات " إلا النهاية المفتوحة على الممكنات .

إن مقارنة ما أحدثته مقولة "صدام الحضارات " فى العالم الإسلامي من جهة، وفى جنوب آسيا من جهة أخرى ، لتؤكد أن اليابان والصين والكوريتين قد عرفوا كيف يردون على الأيديولوجية بالعلم أى بالأعمال فى عملية التحديث الذاتى وليس بالتغريب، عكس الكلام الأيدولوجى الذى لا تسانده قوى علمية فى العالمين العربى والإسلامي .

وفى مجال السياسة ثمة ظاهرة تشكل " العولمة " وهى تكوين حركات سياسية ومنظمات إنسانية تعمل على مستوى عالمى ،ولم يعد سور الصين العظيم ولا خط برلين يمنع من الامتداد حتى نهاية العالم . ومن

الناحية الفلسفية والفكرية ، بدا الناس يفكرون بشكل عالمى ،ويؤمنون بوحدة الجنس البشرى ، وترابط مصيره ، وينشدون الضغط على صانعى السياسة لتحقيق السلام والتحرر الاجتماعي من أجل التنمية الاقتصادية والثقافية مع احترام التعددية . لذلك نشأت منظمات وطنية وإقليمية وعالمية للدفاع عن حقوق الإنسان ، ضد تخريب البيئة العالمية والتسلح النووى .

غير أن الهيمنة الغربية التكنولوجية الآن تحاول أن تختصر القرون والقارات والحضارات وتحولها إلى جسد حضارى واحد ، وذلك بفضل الصورة أو تكنولوجيا الإعلام ، التى تحدث تغييرا سريعا في التكوين الأخلاقى والثقافى ، وتختصر الزمان والمكان . ولكن التصور العالمى للثقافة ، طرح جملة من القضايا والإشكاليات في الثقافة والآداب والفكر ، كإشكاليات الهوية والخصوصيات الثقافية والحضارية .

ويمكن أن نعتبر أمريكا البلد الأكثر انفتاحا على العالم ، والأكثر حضورا فيه ، والأكثر انفتاحا على القوميات . هذا الحضور العالمى على الصعيد الأمريكى يؤكد ظاهرة العولمة ، حيث عملت كثيرا على انتشار وانغراس الولايات المتحدة ، ولذلك أصبحت العولمة هى أمريكا . إذن هى رحلة من الوطن إلى الدولة إلى نظام العولمة ، تكون فيها أمريكا سيدة المقام ، يصوغ الغرب مادة " الحلم الأمريكى American Dream" الذى يمكن تحقيقه بفرص متكافئة ، وقنوات مفتوحة ، بغض النظر عن اللون والجنس والعرق والمعتقد الدينى والأصل الاجتماعي، وكما استقبل تمثال الحرية بذراعيه ملايين أكثر من اللاجئين المثقفين الجدد، وسيثبت أنه سيكون قادرا على احتواء الثقافات الوافدة المترسبة المغايرة في بوتقة انصياره الضخمة " العولمة " أو " الأمريكية "

ساعد على ذلك أن " القرية العالمية " الإلكترونية جعلت العالم مترابطا بصورة عضوية ، فما يحدث في بقعة من العالم يؤثر في جميع بقاعه الأخرى مهما تباعدت المسافات أو تنافرت الثقافات ، وبانتشار محطات التلفاز الكوكبية والصحافة الإلكترونية وسوق الكتاب ، ودوران الأرض للمعارض الفنية وغيرها ، مما شكل في النهاية ثقافة عولمية .

من تعريفات العولمة وتجلياتها : العولمة Globalization تشير إلى شيئين معا : انكماش العالم وازدياد الوعي به ككل ، وحسب تعريف "روبرتسون" فإنها تعني تشكيل وبلورة العالم بوصفه موقفاً واحدا، وظهورا لحالة إنسانية عالمية واحدة . فالعولمة سياسيا تعني أن للأحداث والقرارات والنشاطات نتائج وآثار مهمة للأفراد والمجتمعات ، وثقافيا " ذلك التكوين الذي يشهد تبادلا وتفاعلا ثقافيين بصورة مستمرة ودائمة " والعولمة أو الكوننة أو الشوملة باتت من المفردات الأكثر رواجا في نهاية القرن ٢٠ وإن كان بدأ الظهور في الستينيات في مؤلفات كل من " ماك لوهان " و " بريجسنكي " ، هذا الأخير الذي تحدث عن " المدينة الكوكبية " وتشابك الشبكات التكنو- إلكترونية حيث يتزاوج الكمبيوتر بالتلفزيون بالاتصالات اللاسلكية والذي حول العالم إلى " عقدة علاقات متشابكة ومتداخلة ، عصبية متوترة ومتحركة ".

ومن الثمانينات راج في أمريكا شعار " ثورة الاتصال" وكان لانهيار حائط برلين وانتهاء الحرب الباردة نجاح مدوي للولايات المتحدة وهيمنتها على السوق العالمي للاتصالات ، وصار مفهوم " الحرية " يتماشى مع التجارة وتلقت ماكنة إنتاج الرسائل الأمريكية Messages الدعم القوي من قبل المؤسسات العسكرية ورجال الأعمال في أمريكا،

ودعمت القوة الاقتصادية الأمريكية نفسها بإرادة اقتناع إيديولوجية بأنها ذات رسالة كونية ، وكان المستفيدون الكبار من هذه القدرات الكونية: الشركات العابرة للقارات، والوكالات العسكرية والاستخباراتية، مما ساهم في تقوية الهيمنة الأمريكية . وأصبحت " منظمة التجارة العالمية " تجسد الليبرالية الجديدة في صورتها المتطرفة ، وهى تعنى موتا محققا للعالم الثالث بما فيه من العرب والمسلمين ، وأصبحت انتصارا ساحقا لدكتاتورية رأس المال المتوحش . واللافت للنظر أن أمريكا " الملوث الأكبر" للبيئة في العالم ، والمركز الذى بث أشعة العولمة في كل المعمورة و"راهب" الدفاع عن البيئة ، هى المسؤول الأول عن فشل كل المحاولات الساعية إلى مكافحة " الإجرام البيئى " في العالم بحسب تعبير أنصار البيئة في الدول الصناعية الغربية .

ومن تجليات العولمة بروز ثلاث ظواهر : الأولى بروز النظام الرأسمالى، كقوة جبارة ، وانفراده بقيادة العالم، والثانية قيام ثورة علمية تكنولوجية تكاد تحقق نقلة معرفية وإنتاجية جديدة ، والثالثة هيمنة الولايات المتحدة على وسائط نقل المعرفة وسعيها لتنميط العالم ، سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، من أجل إحكام الهيمنة .

وهى ظواهر متداخلة ، فانفراد النظام الرأسمالى بقيادة العالم ، أتاح الفرصة للحديث عن نموذج واحد مؤهل لقيادة العالم ، وتعميم تجربته وثقافته على العالم ، مما روج لنبوءة " فوكوياما" حول نهاية التاريخ End Of History رواجا منقطع النظير ، وأدى تضافر العوامل السابقة إلى انطلاق مسلسل العولمة باعتبارها ظاهرة لمرحلة متقدمة من تدويل الإنتاج والمشروعات، والمعلوماتية والتكنولوجية المتطورة ، وفتحت الأسواق مشرعة أمام حركة التبادل التجارية العالمية .

ولذلك لا يرى المفكر الفرنسى " جورج لابكا" في العولمة سوى حركة تدعمها أمريكا والشركات المتعددة الجنسيات لسحق مواطنى العالم بأسره ، وخلق نسخ مكررة واستهلاكية ذات نمط استهلاكى عال يغذى الحركة الرأسمالية الوحشية ، ولذلك فعدد المهمشين سيزداد بالتدريج وبشكل متسارع ، حيث تزيد الرأسمالية من قدرتها على التخلص من أعداد كبيرة من البشر كل عام بإلقائهم في سلة مهملات البطالة . وهذا ما أكدته تقارير التنمية البشرية السنوية التى تشير أرقامها المخيفة إلى أن خمس سكان العالم يحصلون على ثلثى الدخل العالمى، وخمس سكان العالم يعيشون في القاع ، نتيجة فلسفة الربح السريع والهيمنة الشاملة . إضافة إلى أن الثورة الصناعية الثالثة قد أدت وتؤدى إلى إعادة تشكيل خريطة العلاقات والتوازنات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ليس على صعيد العلاقات بين الدول فحسب بل على الصعيد العالمى . ولهذا أصبحت الجماعات أكثر توجسا وخشية على هويتها وخصوصيتها الثقافية والحضارية تحت ضغط العولمة الثقافية .

إن العولمة، وفق أساليب متعددة، منها ثورة المعلومات، وحرية تبادلها والنماذج المتحققة على صعيد الواقع، تشكل خطرا فاعلا كبيرا على خصوصية ثقافات المجتمعات المختلفة وتهدد ذاتيتها بما تطرحه من أشكال ثقافية غريبة على هذه الشعوب، بما تتسم به من سطحية وهشاشة وخداع، وتلاعب بالعقول، أو نشر لأوهام أو توليد لإحساس بالخواء والاستلاب، مع عدم إمكانية نقدها أو فحصها وإخضاعها للتحليل والتدقيق، يترافق معها وفرة مالية وأساليب إنتاج ناجحة، بحيث يبدو كل إنجازات التراكم

التاريخي والثقافي والإنساني لهذه الشعوب محل استهجان ورفض من قبل ذاتها، إزاء الفارق الحاصل في سلم الرقي والتقدم الذي يحكم العالم.

ولذلك تجد مقولة"فوكوياما" الزائفة بأن ما تحقــق مــن انتصـــار للرأسمالية، يشكل نهاية لتاريخ الفكر الإنساني والثقافي، صدي وقبولا من الشعوب للثقافات النازحة نحوها، بما تحمله من أفكار وقيم وأنماط غريبة، رغم أن ذلك الانتصار لم يعط للنظام الرأسمالي صفة العجل المقدس الذي لا يمس، في حين تجد الشعوب نفسها في حالة تقريب مع ثقافاتها الممتــدة بعمق التاريخ وفي المنظور الحضاري والإنساني.

وهكذا تتكشف سوءات العولمة لتبقي العلامة الفارقة هي تعميم نظام السوق وتوسيعه أفقيا وعموديا، وذلك عبر تحرير الأسواق الدولية وفتح الحدود الجمركية، وخلق مناطق للتبادل الحر، والمساهمة من جهة في تفويض وحصار القلاع الرافضة للانخراط في النظام الاقتصادي الدولي، عبر أدوات التركيع الإمبريالية، سياسيا من خلال مجلس الأمن، واقتصاديا من خلال الحصار الاقتصادي والعقوبات التجارية مما دعا"جون غراي " في كتابه "الفجر الكاذب" لأن يتنبأ بكارثة، لأن فرض السوق الحر الأنجلوسكسونية على العالم يمكن أن يؤدي إلى انهيار شبيه بانهيار الشيوعية السوفيتية، والاتجاه نحو فرض الأسواق الحرة سيفجر الحروب، ويعمق الصراعات العرقية، ويفقر الملايين، وسيؤدي إلى استبعاد عشرات الملايين من العمل، وإلى الفوضى العامة وشيوع الجريمة المنظمة، وتزايد تدمير البيئة.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن المناصرين للعولمة يرون فيها ثورة علمية وتكنولوجية رائعة يترتب عليها تغيرات راديكالية سريعة، وعلى

الرغم من أنها اليوم في بدايتها، وليس في وسع أحد التنبؤ بمضاعفاتها أو تخيل نهاياتها، إلا أن كل المعطيات تشير إلى تضاعف المعرفة العلمية، كماً ونوعا، وتضاعف الاختراعات والاكتشافات في جميع المجالات وفي مختلف العلوم وتطبيقاتها، ولا ننسى أن القوة والغنى والتقدم تقاس الآن بمدى الاندماج في الحضارة الغربية المعاصرة، والأخذ بمعطيات الثورة العلمية والتكنولوجية التي تمر بمرحلة جديدة،هي الثورة العلمية الثالثة، والصدارة الواضحة للولايات المتحدة الأمريكية في كل المجالات العلمية والتكنولوجية الدقيقة، هي التي جعلتها الدولة العظمى الوحيدة في العالم المعاصر، والقادرة على بسط هيمنتها السياسية والاقتصادية على الشأن العالمي.

ولقد تحولت تكنولوجيا المعلومات إلى أهم مصادر الثورة ، وقوة من القوى الاجتماعية والسياسية والثقافية الكاسحة في عالم اليوم، إضافة إلى المستجدات في حقل الهندسة الوراثية، الذي شهد تطورا مثيرا، حيث تمكن العلماء من تفكيك ومعرفة الجينات الوراثية، ورسم خريطة دقيقة لها، مما مكن من الاستنساخ الحيواني، وسيؤدي إلى القضاء على الكثير من الأمراض العالمية المستعصية كالسرطانات والإيدز، ويرى البعض أنه مهما كانت حقيقة العولمة، والقوى التي تعمل وراءها، إلا أنها ونتيجة لارتباطها بالثورة العلمية والمعلوماتية ستفتح للبشرية آفاقاً معرفية وثقافية لا متناهية. وإذا كانت العولمة تعني التدفق الحر للسلع والخدمات عبر الاقتصادات المفتوحة على بعضها؛ فإن إمكان كل الدول والمجتمعات الاستفادة من مثل هذا التدفق لزيادة فرص النمو والرفاهية في كل أرجاء المعمورة، كما أن بإمكان كل الثقافات في العالم أن تستفيد من اقترابها من

بعضها البعض، وأن تسخر التدفق الحر للمعلومات والأفكار والمفاهيم لكي تتعرف على اختلافاتها وتحترم خصوصياتها، وتعزز من التنوع الثقافي العالمي. وإن كنا نجد بعض الباحثين يثيرون بعض الإشكالات، ويضعون كثيرا من علامات الاستفهام أمام ظاهرة العولمة، حيث أنها ظاهرة مليئة أيضا بكل الاحتمالات المقلقة، فهي مقلقة إذا كانت تعني المزيد من التطورات في الهندسة الوراثية، وتوظيفها تجاريا وعنصريا وعسكرياً، الأمر الذي يستفز القيم الإنسانية العميقة التي تبدو مهددة الآن في ظل غياب القيود الأخلاقية على المستجدات في تكنولوجيا الهندسة الوراثية.

كذلك تبدو العولمة مقلقة إذا كانت تعني زيادة توظيف الشركات الاحتكارية لقدراتها المالية لاستغلال ثروات الشعوب وزيادة تغلغلها في اقتصاديات الدول النامية التي عانت ما فيه الكفاية من الاستغلال والنهب الاستعماري، والعولمة مقلقة إذا كانت تتضمن زيادة الفجوة الاقتصادية والحضارية القائمة حاليا في العالم بين الدول الغنية والدول الفقيرة التي تزداد فقرا. والعولمة أيضا مقلقة إذا كانت تتضمن هيمنة ثقافية واحدة ووحيدة مهما كانت مغرية ومسنودة بالنجاحات المادية والمعنوية، وقيامها بتهميش الثقافات الأخرى. وهي مقلقة إذا كانت تتضمن احتمال صدام الحضارات وصراع المناطق الحضارية ودولها في حروب عنيفة أكثر دموية من كل الحروب التي شهدها التاريخ البشري. والعولمة مقلقة إذا كانت تعني "الأمركة" ولتفراد أمريكا بالشأن العالمي، ونشر نموذجها الحياتي وتعميمه على الصعيد العالمي، وإذا كانت تعني المزيد من اغتراب الإنسان المعاصر الذي بدا يفقد السيطرة على التحولات الحياتية والفكرية السريعة حتى بمعايير عصر السرعة والعجز عن مجاراة المستجدات

العلمية والتكنولوجية التي تؤسس حاليًا للحظة حضارية جديدة، ولعصر مختلف كل الاختلاف عما كان سائدا. وإذا كانت العولمة توحي بكل هذه الإيحاءات المقلقة، فهذه هي العولمة المتوحشة، والتي ستجد الرفض كل الرفض من سائر الشعوب.

إن العولمة -في حقيقة الأمر- تتضمن الكثير من الفرص والمخاطر المتداخلة، ولاشك أن تداخل الفرص والمخاطر هي التي تؤدي إلى تفاوت المشاعر والأحاسيس والمواقف تجاهها أشد التفاوت. فالبعض يظهر كل التفهم للعولمة، ويرحب بفرصها المعرفية والاستثمارية الواضحة، ويدعو للانغماس في لحظة العولمة للاستفادة منها ومن معطياتها. والبعض يبدي التخوف من مخاطر العولمة الكثيرة، ويرفض دلالاتها الاستغلالية ومضامينها الاستهلاكية، ويدعو بالتالي للانكماش من أجل حماية الذات الحضارية والهوية الثقافية التي تبدو مهددة من قبل العولمة، والبعض الآخر يشعر بمزيج من المشاعر الإيجابية والسلبية، ويحاول أن يوفق بين الانغماس من ناحية، والانكماش من ناحية أخرى. إن المطلوب هو تعايش هذه المواقف وتحاورها مع بعضها البعض حوارا سلميا ضمن مناخ حر وتعددي وديمقراطي. إن البعض يرى أنه ربما استطاعت العولمة أن تخترق الحواجز وتبدل الكثير من المفاهيم والمسلمات القديمة ، في مختلف مجالات الحياة وتزيد من شبكة الاتصالات والاعتماد المتبادل، إلا أنها لن تستطيع اختراق جدار الهوية والنزعات القومية أو الدينية التي تشكل حقيقة الشعوب العربية والإسلامية.

وهذا يعود- في رأينا - إلى أن الإسلام، وما يحمله من مبادئ وقيم روحية وأخلاقية يمكن أن تساهم في حل إشكاليات العولمة المستعصية التي

يتخوف العالم من الشرور المصاحبة لتلك الهيمنة المصاحبة للعولمة،مما يؤيد حاجة البشرية إلي الإسلام وقيمه ومبادئه، لأنه يشكل سفينة النجاة، خاصة وأنه لابد من التسليم، باستحالة العزلة، ففسحة الفراغ التي كانت تفصل بين حضارة وأخرى أصبحت في شبه العدم، نتيجة لتدفق المعلومات السريع الذي اختزل الزمن عبر وسائل الاتصال الحديث، ولتكنولوجيا المعلومات، وإن كانت التقاليد والقيم التي يلتزم بها المجتمع العربي والإسلامي من أصعب ما يمكن التأثير فيه عوضا عن تغييره.

ويقدم الإسلام مفهوم "العالمية" عوضا عن " العولمة" ،وهو يتميز عنها بكونه يحترم الخصوصية الثقافية والحضارية لكل شعوب العالم، وبينما تتحقق العولمة في تنميط الشعوب، وتوحيد الأذواق، وإلغاء النماذج، وفرض الاختيارات بالقوة والجبر والتهديد، بما يصعد من سلسلة الصراعات ويغذي النزعات العدائية بين الأمم والحضارات، تتقدم العالمية لتقريب العالم، ويتفاعل كل عالم من العوالم إيجابيا في رسم اللوحة العالمية.

إذا إن ثمة ضرورة لتعدد الثقافات في العالم، وتباينها حسب مصلحة الإنسانية ، فاحترام الخصوصية الثقافية لكل أمة، هو التجديد المستمر لكل جانب من جوانب الحياة اجتماعيا وتربويا وسياسيا وسيكون ذلك عندما تتغير نظرتنا إلى ذاتنا، ونعيد صياغة علاقتنا بالكون بصورة فاعلة إن عالم اليوم هو عالم يتسيد فيه العلم والثقافة، والعقل المنهجي العلمي، وفي نفس الوقت يتميز بسيادة نزعة التجديد المستمر في جميع مظاهر الحياة، والتطورات التي نشهدها اليوم لا مثيل لها في تاريخ الأمم، وما كانت تنجزه الشعوب من أجل التغيير، عبر تخطيط يمتد لسنوات، وعمل مضن، يتم الآن بصورة سريعة ومثمرة وبتكاليف بخسة.

ويتعامل كثير من المسلمين في أغلب الأحوال مع العولمة بطريقة تقوم على إمكانية الاستفادة من نتائج العولمـــة الماديـــة ، مـــن اقتصـــاد وتكنولوجيا ، مع رفض منظومة القيم ، ولكن في الوقـــت نفســـه يكـــرر بعضهم إمكانية أن ينحل المجتمع أخلاقيا ويتطور سياسيا ، ولكن يصـــعب أن ينقسم الإنسان بهذه الطريقة التعسفية إلى مادة وروح ، كما أن التطور العلمي يتطلب قدرا من الانضباط والصبر والمثابرة والتضحية والصدق ، كل هذه قيم روحية ، لا بد من توافرها في العالم أو المخترع .

وكذلك فالعلاقة مع العولمة تحتاج لإعادة نظـــر ، تعـــى العولمـــة كظاهرة شاملة ، والتعامل معها ككل ، ولا يعنى هذا القبول غير النقدى ، ولكن استخدام العقل في فهم ما يدور ، فالمسلمون لا يحتاجون على مناعة أخلاقية ضد العولمة ، بل إلى مناعة فكرية وعقلية وعلمية ، فالمســـلمون حين يخشون اختراق العولمة لهويتهم ، حينئذ لن يكون الاختراق بسبب قوة العولمة الكاسحة ، بل يعود في كثير من الأحيـــان إلـــى ضـــعف هويـــة المسلمين ، أو الأصح ضعف قدرتهم على تجسيد الهوية الإسلامية .

وهنا يسعفنا مفهوم " مالك بن نبى " الثاقب ،وهو " القابلية للاستعمار " Coïonisabilte لنستخدم مفهوم القابلية للعولمة إذ أن العامل الذاتي هو الحاسم دائما مهما كانت قوة العوامل الخارجية ، فالاستعمار أو العولمة تجد مكانا وانتشارا أو رسوخا أكثر بسبب الضعف الداخلى . هذا ما نشهده الآن في تلاقى المسلمين مع نتائج وآثار العولمة ، وهى عملية تسمح للمسيطر عليه ، بعد توقف الهيمنة المباشرة ، أن يحتفظ من خلال علاقته بالمسيطر بما هو عالمى .

إن المحافظة على الهوية وتفعيل التراث العربى والإسلامي ، على الرغم من أنه يعكس الخوف المشروع على الإسلام والتفكير في مستقبل الدين ، إلا أننا ننبه إلى ضرورة بذل مجهود علمى كبير لتفعيل دور الاجتهاد في فهم وتحليل التراث والدين ، فالتراث باعتقادنا هو جملة من الرموز والقيم والاجتهادات الإنسانية ، وقيمة هذه الرموز والاجتهادات هى في مدى قدرتها على الحركة واستثمار الحياة ، فقيمة التراث هو فيما يبطنه من مقدرة على أن يكون معبرا لصناعة مستقبل أفضل ، ولعل أفضل مثال على ذلك هو اليابان فعلى الرغم من التدمير الهائل الذى تعرضت له الأمة اليابانية ، إلا أنها استعادت وعى التاريخ " تاريخها القديم " لتجعل منه نقطة انطلاق للإنجاز اليومى، والتجديد المستمر، فاليابان رغم عمق الجرح الذى أصابها استطاعت وباستنادها إلى تراثها أن تنطلق نحو الأمام ، دون أن تكون مضطرة لإغلاق نوافذها المطلة على العالم .

ولا ننسى أن ثقافتنا العربية والإسلامية وعبر تاريخها المديد أثبتت أنها حوار وتواصل ، تداخلت مع الثقافات الأخرى ، فأخذت منها وأعطتها، واستفادت من العلوم المختلفة وأفادتها كما أسهمت فى رفد العديد من الحضارات الأخرى بالعلم والمعرفة . لقد استطاع الدين الإسلامى بأفقه العالمى أن يؤسس قنوات لتفاعل إيجابى مع مجتمعات متنوعة ، ودون أن يفرض نفسه عليها قسرا أو عنوة. وقد أسس مبادئ دعوية تقوم على مبادئ الإقناع والمجادلة بالتى هى أحسن ، وبتأسيس قاعدة رفض الإكراه في الدين والعقيدة .

ومن هنا فجزء مهم من التخلف الحضارى الذى أصاب المسلمين يرجع إلى انحراف التفكير لديهم ، ولقد أدى الابتعاد عن روح الدين

وحقائقه الواضحة إلى خلق أجيال تؤمن بالإسلام المظهرى ، بينما تعيش الارتباك والتردد في الداخل ، وهو ما ساهم في نتائج حركة الصراع الداخلى في المجتمع العربى والإسلامى ، كما بالغ في تصوير قوة الآخر، الأمر الذى سهل عملية اختراق جسد الأمة، هذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس علامتها الفارقة هى التصدى لعملية التوجيه الذى يتطلب حضورا دائما " **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**" [آل عمران:١١٠] كما أنه من الجدير بالذكر أن الخطاب الاقتصادى العربى المعاصر، مطالب بتحصين المحتوى الاقتصادى العربى ، لكى يتمكن من بناء أمنه الاقتصادى، قبل الحديث عن موجبات الاندماج بالسوق العالمى ، ومطالب كذلك بالحفاظ على سلطة القرار الاقتصادى العربى ، ومنظومة السيادة الاقتصادية العربية ، والحد الأدنى من الثوابت القومية ، بدلا من التعلق بعالم السيادة الكونية ، كما أن هذا الخطاب مطالب بعدم الوقوع في فخ العولمة وما يروجه خطابها من موجبات الاندماج بالسوق العالمى ، ولست من الذين يطلبون بدفن الرؤوس في الرمال وتجاهل العولمة ، ولا من القائلين بإمكانية مواجهتها بالعنف والتمرد. ولست بالطبع من المستسلمين الداعين إلى "ركوب القطار" قبل أن يفوت الأوان، بل أنا من القائلين بضرورة المواجهة الإيجابية لتحديات العولمة.

ولتحقيق ذلك لا بد من أن تكون بلداننا العربية والإسلامية حرة في تحديات خياراتها الاقتصادية الاجتماعية أى أن تكون حرة في تحديات القطاعات الأساسية التى يعتمد عليها الاقتصاد الوطنى ، وليس الجهات المقرضة أو المانحة أو الشركات متعددة الجنسيات . وأن تكون حرة في إبداع "التكنولوجية الملائمة" وحرة في تحديد آليات "الإصلاح الاقتصادي"

ووثائره ومجالاته ، مع وقف تدهور أوضاع الطبقات الفقيرة والمتوسطة ، وتوفير الموارد المالية اللازمة للسير في عملية تنموية موجهة لصالح جميع مواطنيها ، وهذا لا يكون إلا باتخاذ خطوات حازمة لوقف الفساد والهدر والمظهرية والاستهلاك التفاخرى .

أما من الناحية الثقافية والفكرية ، فلا بد للفكر العربى والإسلامى المعاصر من أن ينير الطريق للحركة الإسلامية المعاصرة ، ويقرر موقفه في صراحة وجلاء من حقائق معاصرة مثل " حقوق الإنسان " أو " الكرامة الإنسانية" من ناحية المبادئ والقواعد أولا ، ومن ناحية مدى تطبيقها عالميا ، ومؤازرة كل ضعيف حتى يؤخذ الحق له ، ومواجهة كل قوى غشوم حتى يؤخذ الحق منه ، كما ينبغى أن يقترن تقرير حقوق الإنسان بالنسبة للمرأة وبالنسبة لغير المسلمين بتطبيقها الحاسم الشامل بين المسلمين أنفسهم ، في مجتمعاتهم وجماعتهم ودولهم ، حتى لا يكونوا ممن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ويقولون ما لا يفعلون .

وعلينا كذلك أن نقرأ الغرب بتمعن قراءة معرفية ، تستكشف الغرب وتجعله واضحا فكريا أمامنا سواء اعتبرناه الغرب " نظيرنا المختلف" أو " عدونا اللدود والتاريخى " فإن فهمه واستيعابه هو ارتقاء في المواجهة . إن مواجهة " الآخر" بالعلم والثقافة ، أى المواجهة بالمعنى المعرفى ، تؤهلنا لانتقال تلك المواجهة إلى ساحات أرحب ، فالمواجهة بالمعنى الحرفى ، تعنى أن نضع المقولات والمفاهيم موضع النقد والتحليل والتفكيك ، من أجل فهمها وإعادة إنتاجها ، فعندها يتولد الوعى بالذات وبالآخر ، أنها اللحظة التى ينهض فيها العقل معلنا استقلاله ، وقدرته على تمثيل نفسه ، ومنبئا عن انكسار المركزية الأوروبية والرأسمالية الغربية ، أمام تعددية المراكز خارج نطاق سيطرة المشروع الأوروبى والخطة الغربية .

فالعولمة هنا يمكن أن تكون منفذا لتفتح آفاقا وتتيح فرصا أمام الذين يمتلكون المهارة والقدرة التى تمكنهم من الحركة والازدهار والفعل الإيجابى الواعى . ليس واقعيا التعامل مع الغرب بنرجسية ، كما أن الإنصاف لا يسمح لنا بالتنكر لكل إيجابيات الحضارة الغربية ، وقد آن الأوان لتجاوز ثنائية الرفض والقبول ، " مع أو ضد " تلك الثنائيات التى ساهمت إلى حد كبير في إرباك وعينا ، وقدرتنا على الفهم واستيعاب حركة التغيرات اليومية .

أن بناء نظام عالمى إنسانى الطابع والاتجاه ، لا يتم إلا عبر مشاركة للجميع في تشكيله ، نظام تقبله جميع الأطراف ، يقوم على التعددية والحوار والتعاون والتعايش المشترك ، وتنتفى منه لغة الفرض وأساليب الهيمنة والقمع . هل يمكن أن تنجح شراكة متوازنة بين المدنية الحديثة والقيم الروحية ؟ بالتأكيد ذلك ممكن، وأى رأى يذهب إلى غير ذلك سيحتوى على تشكيك غير مبرر بالقيم الروحية وبالمدنية الحديثة .

Obeikandl.com

المصادر والمراجع :

١-صمويل هانتغتون : صدام الحضارات ، ترجمة طلعت الشـايب ، كتاب سطور ، القاهرة عام ١٩٩٨م.

٢-برهان غليون : اغتيال العقل ،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر عام ١٩٩٠م.

٣-د. جلال أمين : ماذا حدث للمصريين ، كتاب الهلال، مصر عـام ١٩٩٨م .

٤-فرنسيس فوكوياما : نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ترجمة د حسـين أحمد أمين ، الأهرام ١٩٩٢م.

٥-كريم أبو حلاوة : الآثار الثقافية للعولمة ، عالم الفكر ج٢٩ العدد ٣ الكويت عام ٢٠٠١م .

٦-إدريس هانى : الدرجة صفر عولمة ، مجلة الكلمة ، بيروت العدد ٢٧ ، ربيع عام ٢٠٠٠م

٧-مسعود ضاهر : صدام الحضارات ارتباك الخائفين مجلة العربى ، الكويت العدد ٤٥٢

٨-عزت السيد أحمد : العولمة والغزو الثقافى ، الفكر العربى العـدد ٩٦ بيروت عام ١٩٩٩ م

٩-حاتم عثمان : العولمة والثقافة ، مجلة العصور الجديدة العدد ٤ عام ١٩٩٩م .

١٠- ثناء فؤاد عبد الله : قضايا العولمة بين القبول والرفض، مجلة المستقبل العربى العدد ٢٥٦ عام ٢٠٠٠م.

obeikandi.com